هل الطبيعة كتاب؟ *المقالة الثامنة: كيف نعرف أننا نعرف؟*

مقدمة:

في المقالة السابقة، تأملنا الإنسان بوصفه قارئًا للطبيعة، واكتشفنا أن قراءة العالم لا تكتمل من دون قراءة الذات. لكن هذا يقودنا إلى سؤال أعمق: إذا كان الإنسان هو الذي يقرأ هذا الكتاب، فكيف يعرف أن قراءته صحيحة؟ وكيف يميز بين ما يكشف له حقيقة الأشياء وما يصنعه ذهنه من تصورات عنها؟

قد يرى الإنسان ظاهرة في الطبيعة، فيفسرها وفق ما اعتاده، ثم يكتشف أن تفسيره لم يكن صحيحًا. وقد يسمع فكرة مرارًا حتى يألفها، فيظن أن ألفته بها دليل على صدقها. وقد تتراكم لديه المعلومات، بينما يظل عاجزًا عن التمييز بين ما يعرفه حقًا وما يعتقد أنه يعرفه.

وهنا تظهر مفارقة تستحق التأمل: نحن نستخدم عقولنا لفهم العالم، لكننا نحتاج إلى العقل نفسه كي نفحص طريقة فهمنا له. فكيف نتحقق من سلامة أحكامنا؟ وهل تكفي ثقتنا بفكرة حتى تكون صحيحة؟ أم أن بين الاقتناع بالحقيقة وامتلاك الدليل عليها مسافة لا بد من عبورها؟

إن السؤال عن المعرفة ليس ترفًا فلسفيًا؛ إنه حاضر في كل خبر نصدقه، وكل رأي نتبناه، وكل حكم نصدره. فقبل أن نسأل عمّا نعرفه، ينبغي أن نسأل كيف عرفناه، وما الذي يجعل معرفتنا جديرة بالثقة.

أن نعرف حدود معرفتنا

يبدأ الإنسان حياته دون أن يمتلك معرفة مكتملة بالعالم. يتعلم من حواسه، ويكتسب اللغة من محيطه، ويستند إلى خبرات الآخرين، ثم يبني تصوراته تدريجيًا. ومع مرور الزمن، تتسع معارفه، لكن اتساعها لا يعني أن كل ما استقر في ذهنه صحيح.

فالحواس، على أهميتها، لا تقدم لنا دائمًا صورة كاملة عن الواقع. وقد يتغير ما نفهمه من مشهد حين نراه من زاوية أخرى، أو نكتشف معلومات لم تكن متاحة لنا، أو نستخدم أدوات تكشف ما تعجز الحواس المجردة عن إدراكه.

لهذا لم يكتف الإنسان بالمشاهدة المباشرة، بل تعلم أن يقارن الملاحظات، ويختبر الفرضيات، ويبحث عن تفسيرات بديلة، ويعيد النظر في أحكامه حين تظهر أدلة أقوى. فالمعرفة ليست مجرد جمع للمعلومات، بل جهد مستمر للتمييز بين ما تؤيده الأدلة وما لم يتجاوز حدود الظن.

وفي هذا السياق، يضع القرآن مسؤولية المعرفة في عبارة موجزة وعميقة، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، [الإسراء: 36].

فالآية لا تدعو الإنسان إلى تعطيل حواسه وعقله، بل إلى تحمّل مسؤولية ما يتلقاه وما يعتقده وما يتبعه. ليس كل ما نسمعه حقيقة، ولا كل ما نراه كافيًا للحكم، ولا كل ما يستقر في نفوسنا جديرًا بأن يتحول إلى موقف نتبناه.

والاعتراف بحدود المعرفة لا يعني أن نشك في كل شيء، أو أن نعيش أسرى الحيرة، بل أن نميز بين درجات ما نعرفه: بين حقيقة تؤيدها أدلة قوية، ورأي يحتمل المراجعة، واحتمال لم تتضح وجوهه بعد.

إن التواضع المعرفي ليس تراجعًا عن التفكير، بل إدراك أن العقل، على قدرته، لا يعصم صاحبه من الخطأ. ومن لا يرى احتمال الخطأ في أحكامه قد يغلق الباب الذي تدخل منه المعرفة الجديدة.

حين لا تكون الثقة دليلًا

قد لا تكمن المشكلة دائمًا في نقص المعلومات، بل في الطريقة التي نتعامل بها معها. فالإنسان يميل أحيانًا إلى تصديق ما يوافق رغباته، والتمسك بما اعتاد عليه، والدفاع عن أفكاره حين يشعر أن مراجعتها تهدد صورته عن نفسه.

قد يبدأ من نتيجة يحبها، ثم يبحث عما يؤيدها، أو يرفض دليلًا لأنه يخالف موقفًا استقر عليه. وقد يظن أنه يدافع عن الحقيقة، بينما يدافع في الواقع عن اعتقاده السابق بها.

لهذا لا يكفي أن نسأل: هل أنا مقتنع بهذه الفكرة؟ بل ينبغي أن نسأل: ما الدليل الذي أستند إليه؟ وهل فحصت ما يخالف رأيي بالإنصاف نفسه الذي أفحص به ما يؤيده؟ وهل سأقبل النتيجة ذاتها لو قادتني إلى موقف لا أرغب فيه؟

هذه الأسئلة لا تمنحنا عصمة من الخطأ، لكنها تساعدنا على اكتشاف بعض الطرق التي قد يضللنا بها تفكيرنا. فالثقة بالنفس ليست برهانًا على صحة الرأي، كما أن شيوع الفكرة لا يثبت صدقها، ولا يجعلها قدمها بمنأى عن المراجعة.

ومن هنا نفهم أهمية الدعوة القرآنية إلى البرهان، في قوله تعالد:﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، [البقرة: 111].

فالبرهان ينقلنا من مجرد الادعاء إلى النظر في الحجة. وبدل أن تكون قوة الفكرة مستمدة من كثرة من يرددونها، أو من مكانة قائلها وحدها، يصبح السؤال عن دليلها ومدى صلاحيته جزءًا من مسؤولية التفكير.

ومع ذلك، لا يستطيع الإنسان أن يتحقق بنفسه من كل ما يعرفه. فجانب كبير من معرفتنا يعتمد على خبرات الآخرين، وعلى التخصصات التي لا نملك أدواتها، وعلى شهادات ونتائج يصعب إعادة اختبارها فرديًا. لذلك لا يكون النضج برفض كل ما لا نختبره بأنفسنا، ولا بقبول كل ما يقال لنا، بل بمعرفة متى تكون الثقة مبررة، وما حدودها، وكيف نميز المصدر الموثوق من غيره.

الطبيعة تعلّمنا كيف نسأل

حين ينظر الإنسان إلى السماء، أو يتأمل قطرة الماء، أو يراقب حركة الطيور، فإنه يبدأ بالملاحظة، لكن الملاحظة وحدها لا تكشف له جميع ما وراء الظاهرة. إنها تفتح السؤال، ثم يأتي البحث ليختبر التفسيرات الممكنة.

قد يبدو لنا مشهد ما واضحًا، بينما يخفي وراءه علاقات لا تكشفها النظرة الأولى. وقد نلاحظ تكرار ظاهرة، لكن معرفة أسبابها تحتاج إلى مقارنة الظروف، واختبار الفرضيات، والتمييز بين ما يحدث مع الظاهرة وما يؤدي فعلًا إلى حدوثها.

ومن هنا تتضح أهمية المنهج العلمي: فهو لا يجعل التفسير الأول حقيقة نهائية لمجرد أنه يبدو مقنعًا، بل يعرضه للاختبار، ويتيح للأدلة أن تؤيده أو تضعفه أو تدفع إلى استبداله. وقوة المعرفة العلمية لا تكمن في ادعاء أنها لا تخطئ، بل في قدرتها على تصحيح أخطائها من خلال الملاحظة والتجربة والنقد.

ولا يعني ذلك أن جميع التفسيرات متساوية، أو أن الحقيقة مستحيلة؛ فهناك تفسيرات تدعمها الأدلة أكثر من غيرها، لأنها تفسر المشاهدات بدقة أكبر، وتصمد أمام الاختبارات، وتتيح لنا التنبؤ بظواهر يمكن فحصها.

وقد وجّه القرآن الإنسان إلى النظر في آيات الكون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، [آل عمران: 190–191].

إن التفكر في الكون يتجاوز المشاهدة العابرة إلى النظر والاعتبار. وكلما اتسعت معرفتنا بتفاصيل الطبيعة، ظهرت لنا علاقات وأسئلة جديدة، واتضح أن ما نجهله قد يكون أوسع مما كنا نتصور.

لكن احترام الحقيقة يقتضي أن نميز بين ما تثبته الملاحظة والتجربة، وما نستنتجه منهما، وما نضيفه من تأملات فلسفية أو دينية. فالعلم يبحث في الظواهر والعلاقات التي يمكن فحصها، أما أسئلة أصل الوجود وغايته فتفتح مجالات أخرى للتفكير الفلسفي والإيماني. وقد تتكامل هذه المجالات، لكن التكامل لا يعني الخلط بين مناهجها أو نسبة ما لم تثبته التجربة إلى العلم.

فالطبيعة تدعونا إلى السؤال، والمنهج العلمي يساعدنا على اختبار الإجابات، والتأمل الفلسفي يفتح أسئلة المعنى، والإيمان يمنح المؤمن أفقًا أوسع لفهم علاقته بالوجود وخالقه.

إلهي، كيف يُستدل عليك؟

حين يتأمل الإنسان الطبيعة، فإنه يكتشف انتظامات وعلاقات، ويفهم شيئًا فشيئًا كيف تعمل ظواهر كثيرة. لكن وراء وصف هذه الظواهر وتفسيرها سؤالًا آخر: هل يكفي أن نفهم كيف تعمل الأشياء، أم يبقى سؤال عن أصل الوجود ومعناه؟

هنا يفتح دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة أفقًا تأمليًا عميقًا. ففي الدعاء يتساءل الإمام: "مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟".

إن هذا السؤال ينقلنا من مجرد النظر إلى آثار الوجود إلى التأمل في دلالتها في الرؤية الإيمانية. فالمؤمن لا يرى الموجودات حقائق منفصلة مكتفية بذاتها، بل يتأمل افتقارها وعلاقاتها، ويرى في وجودها مجالًا للتفكر في الخالق.

ولا ينبغي أن نقرأ هذا المقطع بوصفه بديلًا عن المنهج العلمي، أو برهانًا تجريبيًا على تفسير ظاهرة بعينها؛ إنه تأمل في مستوى آخر من السؤال، يتعلق بعلاقة الوجود با، وبكيفية نظر الإنسان إلى العالم الذي يعيش فيه.

فالإنسان يستطيع أن يدرس أسباب ظاهرة طبيعية، وأن يصف القوانين التي تنتظمها، دون أن يكون هذا الوصف وحده جوابًا عن جميع الأسئلة الفلسفية المتعلقة بأصل الوجود. وفي المقابل، لا يغني التأمل الإيماني عن دراسة الأسباب الطبيعية حين تكون قابلة للفحص.

وهكذا يمكن للعلم والإيمان أن يلتقيا في عقل لا يخشى السؤال، ولا يتعجل الخلط بين الإجابات، ولا يظن أن فهم آلية الظاهرة يلغي كل سؤال عن معناها، أو أن الإيمان يعفيه من البحث في أسبابها.

وفي هذا الأفق، لا تكون معرفة الإنسان دعوى بالإحاطة، بل رحلة يزداد فيها وعيًا بما يعرفه، وبما لم يعرفه، وبالأسئلة التي تحتاج إلى مناهج مختلفة للإجابة عنها.

أن يكون الغنى في النفس

لكن حدود المعرفة لا ترتبط بالعقل وحده؛ فالإنسان قد يمتلك الأدلة التي تدعوه إلى مراجعة موقفه، ثم يعجز عن ذلك لأن الحقيقة لا توافق رغبته، أو لأن الاعتراف بالخطأ يثقل عليه، أو لأنه يخشى أن يفقد مكانته إذا تراجع عن رأيه.

هنا تظهر الحاجة إلى شجاعة أخلاقية تصاحب التفكير: أن يقبل الإنسان ما يراه من دليل، حتى إن خالف هواه، وأن يعترف بخطئه من غير أن يرى في ذلك انتقاصًا من قيمته.

وفي دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة نقرأ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي، وَالْيَقِينَ فِي قَلْبِي، وَالْإِخْلَاصَ فِي عَمَلِي، وَالنُّورَ فِي بَصَرِي، وَالْبَصِيرَةَ فِي دِينِي".

تجمع هذه الكلمات بين معانٍ تتصل بحياة الإنسان الباطنة: الغنى، واليقين، والإخلاص، والنور، والبصيرة. ويمكن أن نتأمل صلتها بطلب المعرفة من جهة أن الإنسان يحتاج إلى التحرر من بعض دوافعه التي قد تحجب عنه الحقيقة.

فقد يرفض فكرة صحيحة لأنه يخشى نتائجها، أو يدافع عن رأيه لأنه ربطه بكرامته، أو يتبع رأيًا شائعًا كيلا يبقى وحيدًا في موقفه. وفي مثل هذه الحالات، قد لا تكون المشكلة غياب الدليل، بل صعوبة تقبله.

والغنى في النفس، في هذا السياق، لا يعني الاستغناء عن الآخرين أو رفض نصحهم، بل ألا يجعل الإنسان قيمته رهينة لتصفيقهم، وألا يجعل حاجته إلى القبول أقوى من حاجته إلى الصواب. أما الإخلاص فيعني أن يكون طلب الحقيقة أسبق من الرغبة في الانتصار للنفس، وأن يظل الإنسان مستعدًا لمراجعة موقفه حين تتغير الأدلة أو يتضح له خطؤه.

ولا يعني اليقين هنا التشبث بكل ما نعتقده، بل التمييز بين يقين له ما يسنده، واعتقاد لم يُفحص بما يكفي، وظن يحتاج إلى مزيد من النظر. فالنفس التي تطلب الحقيقة بصدق لا تخشى المراجعة، والعقل الذي يحسن التفكير لا يجعل التراجع عن الخطأ هزيمة، بل يراه جزءًا من طريق المعرفة.

من المعرفة إلى البصيرة

إذا كانت المعرفة تبدأ بالسؤال، وتنمو بالدليل، وتحتاج إلى المراجعة، فإنها لا تبلغ غايتها بمجرد تراكم المعلومات. فالمعرفة التي لا تساعدنا على التمييز، ولا توسع فهمنا، ولا تزيدنا مسؤولية في أحكامنا وأفعالنا، قد تبقى حبيسة الذهن دون أن تتحول إلى بصيرة.

والبصيرة ليست مجرد امتلاك معلومات أكثر، بل القدرة على فهم ما تدل عليه المعلومات وما لا تدل عليه، ووضعها في سياقها، وإدراك حدودها وآثار استخدامها. فقد يعرف الإنسان حقيقة علمية، لكنه يسيء توظيفها؛ وقد يمتلك معلومة صحيحة، ثم يبني عليها حكمًا لا تبرره.

لهذا تصبح الأمانة في المعرفة مسؤولية أخلاقية أيضًا. فلا ننقل خبرًا لمجرد أنه يوافقنا، ولا نحكم على إنسان بناء على ظن، ولا نعرض احتمالًا وكأنه حقيقة ثابتة، ولا نخفي ما يضعف موقفنا لمجرد أننا نرغب في الانتصار له.

إن العقل الناضج لا يكتفي بالسؤال عن صحة الفكرة، بل يسأل عن حدودها، وعن النتائج التي يمكن استخلاصها منها، وعن المسؤولية التي تترتب على استخدامها. وهو يجمع بين الجرأة في السؤال والتواضع في الحكم؛ فلا يخاف البحث، ولا يتعجل اليقين، ولا يستسلم للشك حين تتوافر الأدلة، ولا يغلق باب المراجعة حين يتبين له الخطأ.

الكتاب الذي لا تنتهي قراءته

حين بدأنا هذه السلسلة، كانت الطبيعة أمامنا كتابًا مفتوحًا: في قطرة الماء قصة حياة، وفي الجبل حركة لا نراها، وفي السماء اتساع يوقظ السؤال، وفي الأنعام والطيور آيات تستدعي التأمل. ثم وصلنا إلى الإنسان، القارئ الذي يحمل هذا الكتاب، ويحتاج إلى أن يتعرف إلى نفسه وحدود معرفته.

واليوم نكتشف أن القراءة نفسها تحتاج إلى قراءة؛ أن نسأل عن الأدلة التي نستند إليها، وعن الطرق التي نبني بها أحكامنا، وعن الأهواء التي قد تتدخل في فهمنا، وعن الفرق بين أن نعتقد أننا عرفنا وأن نمتلك ما يسوّغ معرفتنا.

إن السؤال "كيف نعرف أننا نعرف؟" لا يدعونا إلى الارتياب في كل شيء، بل إلى أن نكون أكثر أمانة مع الحقيقة؛ أن نعطي الدليل حقه، وأن نعترف بحدود معرفتنا، وأن نميز بين الحقيقة والاحتمال، وبين ما نعرفه وما نرغب في تصديقه.

وفي الرؤية الإيمانية، يمكن لقراءة الكون أن تقود الإنسان إلى التأمل في آيات ا، من غير أن تعفيه من واجب النظر والفحص، ومن غير أن تجعل كل تفسير يخطر له حقيقة ثابتة. فالتفكر الصادق يجمع بين انفتاح العقل وخشوع القلب، وبين طلب الدليل والإقرار بأن الإنسان، مهما اتسعت معرفته، يظل محدودًا في علمه وقدرته.

وهكذا، لا تكون قيمة القارئ في أنه يدعي الإحاطة بالكتاب، بل في أنه يحسن قراءته: يراجع فهمه، ويصحح خطأه، ويتواضع أمام ما لم يتضح له، ويجعل ما يتعلمه سبيلًا إلى بصيرة أعمق وعمل أصلح.

فليس السؤال الأهم أن نعرف فحسب، بل أن نعرف ما الذي يجعل معرفتنا جديرة بالثقة، وأن نملك الشجاعة لمراجعتها، والحكمة في العمل بما تكشفه لنا.

وفي المقالة القادمة، ننتقل من سؤال موثوقية المعرفة إلى سؤال آخر: كيف يتحول ما نراه من ظواهر إلى قوانين نفهم بها العالم؟ وكيف ينتقل العقل من الملاحظة إلى اكتشاف الأنماط التي تنتظم الطبيعة؟